مكامن الجمال في النص الأدبي في النقد المغربي القديم

Places of beauty in the literary text in the old Maghreb criticism

د. محمد رزيق*
جامعة حسيبة بن بوعلي – الشلف (الجزائر) Rsedik@ymail.com

تاريخ الإرسال: 2020-08-18 تاريخ القبول: 2021-04-11 تاريخ النشر: 2021/05/26

ملخص :

يتسع مفهوم النص الأدبي بما يستحضره من لغة إبداعية في هيئتيها الحسية والشعرية للأجسام و المعاني بصياغة تمليها أو تفرضها قدرة المبدع و تجربته وفق معادلة فنية بين المجاز و الحقيقة دون أن يستفرد طرف بآخر ، و لكن لا بأس من أن يستفز أحدها الآخر، مادامت هذه المعادلة تظل أنماطها متعددة بتعدد الرؤى و التجارب داخل الحس والشعور، فالنص الأدبي يقوم على تصورات أدبية مشحونة بمشاعر إنسانية يستقبلها المتلقي نابعة من حاجة المبدع .

الكلمات المفتاحية : النقد المغربي – الإبداع – النص الأدبي – الشعر – النثر – الأدبية – المضمون – اللغة – المشاعر .

Abstract

The concept of the literary text develops with what it invokes in terms of creativity in its sensory and poetic formations of bodies and meanings in terms dictated or imposed by the ability and experience of the creator according to an artistic equation between metaphor and truth without one part being unique to another, but there is nothing wrong with provoking each other, as long as it is The equation remains multiple motifs in the multiplicity of visions and experiences within meaning and feeling , the literary text is based on literary perceptions charged with human feelings received by the recipient arising from the need of the creator.

***Keywords**: Maghreb criticism - creativity - literary text - poetry - prose - literary - content - language - feelings.*

مقدمة:

النص المتكامل الأطراف و النواحي هو الذي يتم فيه الانصهار لكل ما هو طبيعي في النفس البشرية ، بما هو مكتسب ، و مجرب ، و بما أودعه الله تعالى في الإنسان من قدرات أيضا ، و بما يصنعه الإنسان الفنان المتميز عن عامة الناس ، فالنص المبدع هو الذي " تحتضنه الصدور ، و تختلسه الآذان ، و تنتبهه المجالس و يتنافس فيه المتنافس بعد المتنافس ، والمتفاضل الواقع بين البلغاء في النظم و النثر ، إنما هذا المركب الذي يسمى تأليفا و رسفا، و قد يجوز إن تكون صورة العقل في البدا أوضح و أن تكون صورة الحس في الروية ألوح ، إلا أن ذلك من غرائب آثارا النفس و نوادر أفعال الطبيعة " 1 .

*-المؤلف المرسل

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

- **أثر المشاعر و التصورات الادبية في بناء النص الأدبي .**

و بهذا المعنى يتسع مفهوم النص الأدبي بما يستحضره من لغة إبداعية في هيئتيها الحسية و الشعرية للأجسام و المعاني بصياغة تمليها أو تفرضها قدرة المبدع و تجربته وفق معادلة فنية بين المجاز و الحقيقة دون أن يستفرد طرف بآخر ، و لكن لا بأس من أن يستفز أحدها الآخر، مادامت هذه المعادلة تظل أنماطها متعددة بتعدد الرؤى و التجارب داخل الحس والشعور، فالنص الأدبي يقوم على تصورات أدبية مشحونة بمشاعر إنسانية يستقبلها المتلقي نابعة من حاجة المبدع 2 .

فما معايير جمالية النص الأدبي في النقد المغربي القديم ؟

- **معايير جمالية النص ألأدبي المغربي القديم**

لقد كان حرص النقاد المغاربة في هذه الفترة المبكرة من تاريخ النقد المغربي(ق هـ 4 وما بعده) على استجلاء مكامن الجمال في النص الأدبي – الشعر بداية – من خلال معايشة الأديب للنص من الداخل ، و إدراك تفاصيل إنشائه ، لان النص الأدبي يقتضي في نظر النقاد المغاربة أن يتلبس بعضا من أغوار النفس التي أنجبته ، و من هنا " كان لابد من وصل ما يحمله النص من قيمة فنية بما يتطلبه المجتمع الذي نشا فيه ذلك النص ، لان المبدع ينشئ النص الأدبي و وهو واع بهذا التفاعل ، لذا يحاول إن يكون الالتحام قويا "3 .

لقد عايش النقاد المغاربة تجربة نقدية مستندين في كثير منها على إخوانهم المشارقة، فكانت نظرتهم إلى الأدب على انه كل كلام يثير في النفس انفعالات عاطفية أوإحساسات جمالية ، مع ميل إلى تفضيل الشعر على النثر4 ، آخذين بعين الاعتبار العلاقة التركيبية القائمة على اللغة و العقل و البناء الفني إضافة إلى الذوق ، و هي في جملتها أهم المكونات التي تطبع الشخصية الأدبية المبدعة من جهة ، و تضفي الجمالية على النص الأدبي ، ويزيد النقاد المغاربة على هذه المكونات العقل الذي يؤلف بينها ، ويشد بعضها إلى بعض، إذ ما من كلام غلب عليه العقل إلا زانه و صوبه ، ثم لا بد كذلك من ذوق مبعثه الإحساس بالجمال.

لقد تهيأ إلى أذهان النقاد المغاربة أن القول بالجمال في ميادين الفن إنما ينصرف جملة وتفصيلا إلى ذكر الأمور الايجابية .

و من جملة معايير جماليات النص الأدبي التي وقف عندها النقاد المغاربة ، فتتكامل عوامل الإبداع:

- **فاعلية الموضوع و النص في بناء الصورة الأدبية**

الموضوع : و هو من أهم المعايير التي استرعت اهتمام النقاد المغاربة في النص الأدبي شعرا كان أو نثرا ، و قد كانت هذه الاهتمامات النقدية متقاربة تارة ، و متباينة تارة أخرى ، ففيما له صلة بموضوع الشعر ، حاولوا حصره في أغراض كانت تتربع على الشعر العربي القديم، فبينوا الأصلي منها و الفرعي ، و اعتبروا تلك النصوص القائمة على هذه الأغراض فاكهة بقلوب الجلساء و المتلقين ، وهذا شان كل نص جيد حقق أقصى درجات الجمال والأدبية ، فقد ذكر ابن رشيق أن بعض العلماء قالوا: " بني الشعر على أربعة أركان ، و هي المديح و الهجاء والنسيب و الرثاء "5 .

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وقريب من هذا الموقف رأي عبد الكريم النهشلي الذي يرى أن الشعر أربعة أصناف المديح والهجاء و الحكمة و اللهو ، و من هذه الأصول الأربعة تتفرع أغراض أخرى كالمراثي والافتخار والشكر ، و الثم و العتاب والاستبطاء ، و المواعظ و الغزل و الطرد وصفة الخمر و المخمور 6 .

و قد بالغ آخرون في موضوعات الشعر ، فجعلوها في المديح و الهجاء ، الذين تتفرع عنهما أغراض أخرى معينة ، و قد حدث في النثر ما حدث في الشعر ، إذ حددوا لكل غرض من هذه الأغراض المعاني التي تليق به والتي استمدوها غالبا من موضوعات الأقدمين .

كانت هذه الحركة النقدية في حقيقة أمرها تعترف بالتقاليد الأدبية و الظواهر الفنية التي رسخها الأقدمون ، فربطوا الموضوع بهذه الأغراض ، و هي مواقف نقدية تبناها المغاربة متأثرين إلى حد بعيد بالحركة النقدية المشرقية ، فكل موضوع عندهم متعلق بجانب من جوانب هذه الأغراض ، و غدا القديم هو الإطار الأنسب و الفضاء الأرحب الذي يتناول المبدعون من خلاله الموضوعات ذات العلاقة بحياتهم و بيئاتهم.

إن مثل هذه المواقف النقدية تكشف عن مبدأ التغيير الذي يطرأ على موضوعات النص الأدبي شعره و نثره ، فقد " تختلف المقامات و الأزمنة و البلاد ، فيحسن في وقت ما لا يحسن في آخر ، ويستحسن عند أهل بلد ما لا يستحسن عند أهل غيره "7.

- علاقة التجربة الفنية بحياة الأديب

و كلام عبد الكريم ينصرف بشكل واضح إلى ربط التجربة الفنية للأديب بالحياة، وربط العمل الأدبي في عمومه بالظروف التي تحتضن المبدع ، فيتجلى بذلك التأثر و التأثير، لان عملية الإبداع في الواقع مشدودة إلى النفس المبدعة ، و مصاحبة أيضا للحدث الكلامي الذي هو النص ، الذي ليس مجرد متتالية بسيطة من الجمل ، بل يشكل وحدة خاصة متآلفة و متناغمة و منسجمة سياقيا و نسقيا ، فالنص هو وحدة مترابطة بسبب من تركيب و بناء يستند إلى تفاعل مختلف القرائن و الإشارات والعناصر الموزعة على مختلف مستويات ذلك النص و بذلك جمع النهشلي بين تشريح نفسية الذات المبدعة وكيفية انفعالها عند تلقي الإفراغ الأدبي من جهة ، و من جهة أخرى ، فقد فتح النهشلي المجال حول قضية نقدية في غاية الأهمية تتعلق بالانسجام و الاتساق و الملائمة .

و هكذا نبه النقاد المغاربة إلى أن تجارب الإنسان تتفرع إلى موضوعات شتى تتصل بملابسات حياة الأديب المبدع لان سياق النص يوحي بعدم إمكانية اقتصار تجارب الإنسان على نمط أو أنماط ثابتة ، فهي إذا مفتوحة على وجود الإنسان كله لتستوعب اللحظة الزمنية التي يعيشها بكل ما يضطرب فيها من مستجدات ، فالنص الأدبي يُحَيِّنُ " وليس يتسع بنا هذا الموضع لاستقصاء ما في النفس من هذه الأوصاف ، فحين إذ أدل على مضانها دلالة مجملة ، فيكون بذلك النقد المغربي قد تجاوز بعضا من معايير النقد التي شاعت و عاشت في عقول كثير من نقاد تلك الأيام .

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

- **دور الأديب في اختيار مقروئية النص و أدبيته .**

أصبحت موضوعات النص الأدبي صفات جمالية قبل دخولها إلى العمل الأدبي ، وعلى الأديب المبدع التعرف ما يليق منها بالأدب ، فلم يكن الناقد المغربي يرى الكتابة الأدبية على أنها ضيقة التشكيل حسب قوالبها المعهودة ، و تعدى – فيما نعتقد – التوجيهات النقدية الرسمية القامعة بكل منحى تأليفي يخالف وصايا النقاد، فتجاوز هؤلاء النقاد – أو بعض منهم – النظرة التقليدية ليربطوا بين علم الأدب الذي يبحث في مقروئية النص وأدبيته و علاقة الناص بالمنصوص ، إذ الأدب " هذا العلم لا موضوع له ، ينظر في إثبات عوارضه أو نفيها ، و إنما المقصود منه عند أهل اللسان ثمرته ، وهي الإجادة في فني المنظوم و المنثور " 8 .

و على الجملة فان موضوع الأدب عند اغلب النقاد المغاربة يقوم على مبدأ أخلاقي يستند إلى الوظيفة التربوية الموكلة إلى الأديب في المجتمع ، لذلك أضفوا عليه هذه المهمة الأخلاقية التهذيبية التي تهدف إلى تنشئه الإنسان على الخير و الحق والفضيلة، فما وافق هذه المهمة فهو الأدب الحق ، و ما خلا ذلك فهو مجانب ، بعيد عن الأدب فالشعر هو خير كله ما اتصل بالمواعظ و الزهد و ما اشتمل عليه من معان تقوم على تهذيب النفوس ، وتخدم الفضيلة ،أو هو شعر يتناول به الشاعر أعراض الناس، أو يتكسّب به ، فهو مفسدة للنفوس بما يثيره من انفعالات دنيئة9 .

فموضوع الأدب إذا هو كل ما يفكر به الإنسان مستندا إلى المبدع و جملة المعاني التي يعبر بها عن ذاته مؤثرا في متلقيه بالفكرة النابعة من القلب ، و اللغة الرائقة الناقلة لهذا الشعور ، فيفرح الإنسان للخبر ، و يبتهج للجمال ، و يحزن للفراق ، و يحلم بالمستقبل ، ويتذكر الماضي ، و يعيش الواقع ، كل هذا يعكس أبعاده في الأدب و في موضوعاته التي هي الوعاء الحاوي للنص الأدب10.

المضمون :

و قريب من الموضوع مضمون النص الأدبي ، أحد المكونات الأساسية لهذا النص ، ووسيلة إلى نفس المخاطب و ليس غاية في ذاتها ن ذلك أن العلاقة بين محتوى العمل الأدبي و مهمته التربوية

و المعرفية قوية مستحكمة ، من غير إهمال للمقصديات الأخرى للنص الأدبي .

بهذا يمكن الاهتمام بطبيعة المضامين متوافقة مع الغايات التي حددها كل مبدع لعملياته الإبداعية، و من الطبيعي أن يسعى الأدب إلى هذه المقصديات و في مقدمتها المتعة الجمالية، إذ المبدع و هو يقدم خدماته للمتلقي مطالب بتجويد عمله الفني11 في معان أكثر شفافية ، و لا تحصل هذه الشفافية إلا إذا اجتمعت في هذه المضامين مجموعة من الخصال الحميدة التي تقبل عليها طبيعة النفس الشريفة النقية.

و قد تسهم عدة مؤثرات في توجيه الإبداع الفني بما يتناسب مع طبيعة المضامين، وتترك فيه أثرا واضحا يدل عليها ، ذلك أن الشعر ما يشعر به الشاعر الملقي والمتلقي بما يتوفر عليه هذا الشاعر من إمكانيات أدبية و فنية تؤهله لتوليد معنى أو اختراعه ، أو استطراف لفظ و ابتداعه ، أو زيادة في ما أجحف فيه غيره من المعاني أو نقص أو صرف عن معنى ... 12 .

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

و قد أولى النقاد المغاربة مضمون النص الأدبي جانبا هاما من اهتماماتهم النقدية في نظمه و نثره كحدث كلامي وارد من جهة النفس بسبب الإطراب و المرح و الأريحية 13 ، و وارد من جهة العقل في الصرامة ، و النفس تستأنس لطائفة من المضامين بسبب وشائج نفسية يعجز الدارسون عن تفسيرها أحيانا " لأن الشيء من غير معدنه اغرب ، و كلما كان اغرب ، كان ابعد في الوهم ، و كان أطرف، و كلما كان أطرف كان أعجب ، وكلما كان أعجب كان أبدع " 14 ، و غالبا ما يميل المتلقي إلى مضمون بعينه ، و إنما ينحاز بذلك إلى المضامين الراقية التي تلبي له المتعة الروحية ، و هذا التسامي في خلق بيئة أدبية عالية كان و لا يزال من هموم الأدباء العظام 15 .

و على الجملة ، فان النقاد المغاربة اتجهت آراؤهم النقدية كلها ، أو تكاد إلى المزج بين المضمون و الغرض مع تفضيل ظاهر للمضامين الأدبية العالية الهادفة بما يتلاءم مع طبيعة المجتمعات المغربية آنذاك ، و الرصيد الثقافي الغالب على فكر هؤلاء النقاد .

إلى جانب العنصرين السابقين ، اظهر النقاد المغاربة اهتماما باللغة ، التي هيالممول الأساسي للنص الأدبي ، و قد وقف النقاد عند طبيعة اللغة الأدبية في النثر و الشعر ، وأكد هؤلاء النقاد على أن اللغة و الفكر لا ينفصلان ، و إن كانت اللغة الراقية أصواتا ، فالصوت أفكار ، و قبل أن يكون أفكارا كان إحساسا و مدركات ، و هذه و تلك مجالها علم النفس ، فاللغة إذا مفهوم واسع المجال ، متعدد الأبعاد ، متداخل الوظائف و الدلالات ، و لما كان النص الأدبي يستلزم التحايل على اللغة ، والتلطف في الكلام ، أو المبالغة في التعبير تحت تأثير عوامل نفسية و وجدانية مختلفة ، أدرك النقاد المغاربة أن اللغة فقد تتجاوز الدلالات الأساسية إلى معان جديدة تلائم الظرف و توائم المقام ، "وتتم هذه العملية عن طريق بعض الإفراد من الموهوبين في صناعة الكلام كالكتاب و الأدباء والشعراء" 16 .

فالحُصريّ يقف عند العملية الإبداعية ، محاولا إبراز تجليات النص الأدبي الأصيل مستشهدا بمجموعة من النماذج الشعرية ، و هذا الناقد المغربي و إن لم يوضح الجانب النقدي الذي يرومه ، يترك للمتلقي الحكم إن شاء 17 ، أما عبد الكريم النهشلي فانه يتشدد أكثر في مجال اللغة ، إلى الدرجة التي تسقط فيها كثيرا من المعاني المشتركة ، و كثير من ما اصطلح على تسميته من الأخذ الحسن كالاجتلاب و المراودة و المرافدة ... ، و معنى هذا أن النهشلي ينفي على النص الأدبي اكتساب هذه الجماليات بعيدا عن المعنى ،و لا يمكن هذا للفظ أن يحدث سحرا منفصلا مستقلا عن المعنى18 ، و بذلك يناصر عبد الكريم المعنى وفاته أن النص في واقع الأمر لغة بشكل مستقل موفر للمتعة بسبب تظافر وتماشج كل الآليات و الأدوات التي يستخدمها المبدع ، مادامت اللغة تتجاوز حدود الوعاء أو الوسيلة، للتواصل مع المتلقي ، فتتحول هذه اللغة إلى شيء له وجود تتجلى من خلاله أدبية النص.

أما تلميذه ابن رشيق فانه توسع في اللغة ، و ربط بين هذين المكونين (اللفظ والمعنى) مشيرا إلى تكاملهما19 ، إذ النص الأدبي عنده يخضع للصياغة في التعبير بما يحققه من التأثير ، فكان البعد الجمالي التاثيري هو المهيمن ، و

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

المحفز للشاعر على تجاوز المعنى أو اللفظ ، لان المبدع يخاطب متلقيا ن فهو يريد أن يُفهَم و يُفهِم ، فهو " يهدف إلى إثارة شكل خاص من الفهم عند المتلقي يختلف عن الفهم التحليلي الواضح الذي تنيره الرسالة العادية "20 إن هذا التداخل الذي عاش بعض أجوائه الناقد المغربي يؤدي إلى الجمال الذي يعني الانسجام والتناغم .

فالكلام الجزل هو " الألفاظ القوية المعبرة ، و إذا كان البيت الشعري يحتوي على كلا مجزل فذلك يغنيه عن المعان الجميلة اللطيفة ، و ليس العكس ، فالمعاني اللطيفة إن وجدت في القصيدة فإنها لا تغني عن الألفاظ الجزلة المعبرة "21 .

و سواء قدم بعض النقاد المغاربة اللفظ ، و أولوه الأفضلية في بناء النص الأدبي أو أخروه ، وقدموا المعنى ، فإنهم اجمعوا على أن العلاقة بين هاذين المركبين كعلاقة الجسد بالروح ، فضعف احدهما يترتب عنه ضعف الثاني ، و غدا النص خاليا من القيم الجمالية والفنية ، فالإبداع الأدبي كل لا يتجزأ، و لا ينفصل فيه لفظ عن معنى ، فهما عنصران ملتحمان ولدا في لحظة الإبداع .

- **أثر اللغة في توجيه و باء جكالية النص القائم على اللفظ و المعنى**

اللغة من العناصر الأساسية الناهضة بجماليات النص الأدبي المستند إلى اللفظ والمعنى (الشكل والمضمون) ، و إن كانت الصعوبة كل الصعوبة كامنة في مدى السيطرة على عملية التشكيل النصي ، لا لشيء إلا لكون اللغة مقاربة للواقع ، غير مطابقة له ، وأن الأديب مهما حاول القبض على الفكرة كما هي في متخيَّله ملزَم باستعارة الكثير من الانزياحات الدلالية في هذه اللغة ، و من طبيعة الكتابة الأدبية أن لا تذهب على وتيرة واحدة من الإجادة ، فهي تعلو تارة و تسفل أخرى تبعا لطبيعة النفس بين الإقبال والإدبار على العملية الإبداعية الممثلة في النص الأدبي .

لقد حاول النقاد المغاربة المزاوجة بين النقد النظري و التطبيقي فاستحال التمييز بين ذلك ، فقد اقتنع هؤلاء النقاد أن الأسلوبين يصبان في غاية واحدة ، و مسعى واحد والبحث عن الحقيقة " حقيقة النص بتعبير فلسفي ، أو إلى فهمه بتعبير التأويلية ، أو إلى تفسيره بمصطلح علماء التفسير ، أو إلى استكشاف علاقات الدال و المدلول بتعبير اللسانيين البنويين ، أو إلى الكشف عن نظام الإشارة فيه بتعبير السيمائيين ، أو إلى تقويضه أو تفكيكه بمصطلح الدريديين "22 ، ذلك أن الاهتداء إلى غاية النص – رغم اختلاف الاتجاهات الفنية – هي غاية ما كان يهدف إليه النقاد المغاربة الذين كانوا يركزون جهودهم على النص ، و لا يحيدون عنه .

و هكذا كان نقد المغاربة في هذه الفترة " يسير نحو تمجيد النص الأدبي و حصر الجهود حوله ، حتى أصبح شيئا شبه مقدس في عالم النقد ، و يجب أن يستأثر بكل انتباه الناقد و دراساته ، كما يجب أن يكون كل شيء لدى الناقد و قُرَّائه على السواء"23.

العملية الإبداعية

الأدب فن في جوهره بوصفه نشاطا نوعيا متميزا فما علاقة الأدب بالعملية الإبداعية ؟ ، حاول النقاد المغاربة ملامسة الموضوع بانتهاج مقاربة تقوم على أن العملية الإبداعية تعبير عن جمال العمل الإبداعي الذي يتمظهر في

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

النص الأدبي شعره و نثره ،و قد تبلور مفهوم الإبداع في فكر النقاد المغاربة في إطار الصراع بين القديم و الجديد ، فاتجهت جهود هؤلاء النقاد إلى تفتيت العملية الإبداعية إلى العناصر الأولية المكونة لها ، و ما يلاحظ أن هؤلاء النقاد حاولوا التوسع في دائرة الإبداع ، و أم يعد مجاله المعاني فحسب ، بل انتقل إلى اللفظ ، مادامت المعاني بمنزلة المادة المشاعة بين الناس جميعا ، لذلك "إن المعول عليه في المفاضلة و الحكم هو صورة المعنى لا المعنى في ذاته "24.

و من هنا تحمس الشعراء و قدموا المبنى على المعنى ، بل وجد في ذلك بعض الشعراء متنفسا لهم، بعد أن سادت الفكرة القائلة أن المعاني معطيات ثابتة مكتملة ، إن اعتناء النقاد بالقالب لا تغني عن القلب ، مع أنهم لم ينتبهوا إلى أن المحتوى لا يمكن أن يبقى واحدا و لو اختلف الشكل ، فالتحولات التي تطرأ على بنية الجملة تتبعها تحولات في المعنى أيضا ، ذلك أن " لكل معنى بنية لغوية مخصوصة ، ولا يمكن إحلاله في حيز بنية مغايرة مع الإبقاء عليه برمته "25 .

و معنى ذلك أن كفاءات المبدع و مهاراته تتطلب إحساسا رهيفا باللغة لمعرفة المواضع عند بناء المعنى ، " و لهذا يجب أن نفهم من رمزية الألفاظ عندها أن لا تزيد أن يتعلق الشاعر بهذه الألفاظ وكأنها غاية في ذاتها ، بل لا ينبغي له أن يهتم بها إلا بما تعبر عنه من مشاعر و أفكار و مواقف "26 .

إن المبدأ الأساسي في تكامل كل عمل أدبي إبداعي هو مدى التفاعل بين بنيته، مع التركيز على تحديد مجموع العلاقات المنظمة لهذه البنيات، فالنص عالم دلالات و بنيات يتم إنتاجها من خلال ذات النص "27 .

فالعملية الإبداعية هي نشاط نوعي متميز عن سائر الأنشطة الأدبية و الإنسانية الأخرى ، ذلك "أن مسالة الخلق الفني في الأدب ليست من المسائل الواضحة التي يمكن الإحاطة بها أو إخضاعها لأساليب البحث العلمي ، بل هي مسالة يكتنفها الخفاء و يحفها الإبهام "28 ، و هذا تأكيد إلى ما يتحلى به النص الأدبي من قيم جمالية و معنوية أرقى مما تقدمه لغة الكلام العادي .

و الملاحظ أن اغلب النقاد المغاربة اعتبروا أن الألفاظ رموز للمعاني و المشاعر والأفكار ، ذلك أن الألفاظ لا قيمة لها في ذاتها ، و إنما في ترمز إليه من معاني ، و يتفق هذا الموقف مع المفهوم الشعري عندهم ، فهم يرون أن " أجود الشعر ما رايته متلاحم الأجزاء، سهل المخارج ، فتعلم بذلك أنه افرغ إفراغا واحدا و سبك سبكا واحدا ، فهو يجري على اللسان كما يجري على الدهان "29 ،لان الخطاب الأدبي يقوم على التركيب أساسا من خلال تحديد طبيعة تركيب الجمل ، ووظيفة التركيب في بنية النص ، مع الإشارة إلى الأساليب التي ورد فيها هذا التركيب أو ذاك ، ثم إبراز أهمية الوظائف التي تؤديها الجوانب الجمالية في النص، و تحديد نواحي الانسجام و التناغم بها و معها ، ثم التعويل أيضا على التراكيب المجازية و ما تشتمل عليه لغة النص من عدول من خلال الصورو الدلالات الاحائية التي تتضمنها هذه الصور ، و بهذا الفعل تتجلى جمالية اللغة التي ينشئ فيها المبدع عمله الفني "فالصورة لا تحضر في الذهن باعتبار وجودها المخصوص ، بل تأتي إلى العين من خلال خطاطة مجردة يطلق عليها (البنية الإدراكية) . . . و حين يتم هذا التطابق تبدأ عملية التعرف والتسمية والتصنيف"30 .

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

- **التفرد أساس العمل الابداعي الأدبي**

إن العملية الإبداعية مرتبطة ارتباطا وثيقا بالذات المبدعة ، و مصاحبة للنص الأدبي ، و "المبدع ينشئ النص الأدبي و هو واع بهذا التفاعل "31 ، لان الأدب الأصيل هو الذي يتميز بالخصوصية والتفرد ، إن في اللفظ و إن في المعنى ، و إن فيهما معا و هو الأجود ، و النص المتكامل هو الذي تتمازج فيه النفس البشرية بما أودعه الله فيها من مؤهلات فطرية ، و بما يصنعه الأديب الفنان المتميز عن غيره من الناس العاديين ، و كان النقاد المغاربة يحرصون على إبراز علاقة الناص بالمنصوص ، فحددوا معايير الإبداع من تلطيف للمعاني ، و تصرف في القول ، مع التعويل على المعايير الناهضة على عقل يربط بينها ، و ذوق سليم مبعثه الإحساس بالجمال ، " لهذا لا يكون الكلام جميلا إلا إذا توافر الانسجام بين المعاني التي يتألف منها مضمونه ، و توفر له الانسجام بين الألفاظ اللغوية التي تتلبس المعاني أشكالها ، ويوفر الانسجام بين دلالات الألفاظ المعنوية ، و بين أصوات حروفها ، و بين هذه و تلك جميعا مما يكون روح العمل الفني و جوهره الجمالي الفذ "32.

و مجمل القول أن النقاد المغاربة ربطوا بين الإبداع الأدبي و بين الأحوال النفسية التي يمر بها المبدع الذي يكون على قدر من الوعي يتيح له أن يعكس تجاربه في أشكال أدبية تتم بالمهارة الفائقة والتنظيم السليم ، فالنص الأدبي الخالد فن رفيع يعبر عن صاحبه ، و يمثل تجربته ، و يمثل في الوقت ذاته تجارب جانب من الجوانب الإنسانية .

إن الأثر الأدبي الإبداعي لا يكون أدبا إلا إذا اخذ صورة لفظية بقيم أدبية ، لان الحقيقة العلمية يمكن التعبير عنها بصور مختلفة دون أن تنقص دلالاتها أو تزيد ، أما الحقيقة الشعورية الجمالية فكل تغيير في الألفاظ أو نظامها ، أو في تنسيق العبارات وترتيبها ، أو في طريقة تناول الموضوع و السير فيه يؤثر في صورتها التي ينقلها التعبير إلى الآخرين ، ويؤثر في ذلك تبعا لطبيعة الأثر الذي يتركه في مشاعر المتلقي ، لان وظيفة التعبير في العملية الإبداعية لا تنتهي عند الدلالة المعنوية للألفاظ و العبارات ،بل تضاف إلى هذه الدلالة مؤثرات أخرى يكتمل بها الأداء الفني .

جمالية الإيقاع:

يعتبر النص شكلا أدبيا من حيث صياغته و أسلوبه و وظيفة اللغة فيه ، لذلك فألاهم ليس الأثر المعبر عنه ، إنما العناية تقع على كيفية التعبير و طرقه و أنماطه ، أي وضعيات الجسد اللغوي أثناء تشكله للنص ، و الثابت أن العمل الأدبي هو سلسلة من الأصوات ، مع تفاوت لهذه الأصوات من حيث نسبة الحضور بين نص و آخر .

يتصل الإيقاع بصورة مباشرة بالصوت بمختلف طبقاته و دلالاته الصوتية ، و مع صعوبة حصر ظاهرة الإيقاع ، غير أننا نعتبر الظاهرة الصوتية هي أساس الإيقاع باعتباره مجموعة من التراكيب اللغوية و اللفظية ، لان اللغة كلما انتظمت ، و تشكلت تشكلا أسلوبيا اتضحت ملامح الإيقاع الخارجي بسبب انتظام الحروف و الأصوات ، لان " الكلام أصوات محلها من الأسماع محل النواظر من الأبصار " 33 ، و بتشاكل هذه الأصوات والحروف و انتظامها و تآلفها و انسجامها توجد لنفسها إقبالا لدى المتلقي ،و من ثمة تمنحه فعاليتها الوظيفية موسيقيا و دلاليا " وكلما

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

كان الإيقاع أكثر انتظاما و أكثر كثافة كلما كان اللفظ أسرع إلى السمع من المعنى إلى القلب فصار السامع كالقائل"34.

إن هذه الحقيقة لم تكن غائبة عن أذهان نقاد المغرب القدامى أثناء تعاملهم مع النص الأدبي شعره و نثره ، فأحسن الشعر " ما اعتدل مبناه و اغرب معناه و زاد في محمود الشعر على ما سواه "35 و هم بذلك إنما يعولون على العبارات الموجزة المركزة ، و الألفاظ القليلة، الواضحة البعيدة عن الغموض ، مع توظيف للمحة و الإشارة و الاستغناء عن الإطالة والتطويل ، و أحسن الحسن في الشعر ما تجنب صاحبه " اللحن و خشونة حروف الكلمة ، و تقييد الكلام ، و التقديم و التأخير ، ومجانبة الكلمة ما لا يناسبها و لا يقارنها "36 ، فالشعر موهبة أولا ثم صناعة و دربة و مراس و علم .

لقد كان فهم النقاد المغاربة ابعد نظرة و أكثر وعيا في فهمهم للعملية الإبداعية انطلاقا من أمرين اثنين . . بنية الشعر بما فيها من الألفاظ و مدى ائتلافها و انسجامها وتناغمها فتشكل في مجموعها البعد الفني و الجمالي للنص لأنها الفيصل بين الكلام الأدبي والكلام العادي ، لان الشعر " ما أطرف وهز النفوس و حرك الطباع "37 لان المعنى إذا ورد مكشوفا لا يحدث في النفس لذة و لا يثير فيها فضولا و لا شوقا إلى المعرفة 38 ، و الأمر الثاني المضمون بما يشتمل عليه من معان و هي التي تشكل الخيال و العاطفة ، و هي أصل المتعة التي تقدمها الصورة الأدبية القائمة على تراكم لفظي ، إذ كلما استطالت السلسلة اللفظية فإنها تمتد إلى إشباع المعنى المراد مهيأة بذلك القدرات الابلاغية الأدبية بين اللغة العادية، و بين الانحراف عن هذه اللغة و الاتجاه إلى خلق تركيب نظمي مغاير يخالف البنية التركيبية لها 39 .

و مما سبق نتبين أن النقاد المغاربة أكدوا على أهمية النغمة الإيقاعية في النص الأدبي شعرا و نثرا سواء تعلق الأمر بالوزن و القافية أو أساليب انتظام الألفاظ و انسجامها وائتلافها و تناغمها في إطار العبارة ، مما يحدو بالمتلقي إلى الإقبال على هذا الأثر الإبداعي بشيء كبير من الإطراب و اللذة اللذان يوجدان لدى النفس تأثيرا خاصا فتهتز له و تهتش إليه 40 ، لاسيما أن الوزن يعتمد نسقا مضبوطا في توزيع اعاريضه و حركاته و سكناته ويجعل اللغة تنتظم انتظاما يختلف عن الصور العادية للكلام .

لقد اجتهدت المدرسة النقدية المغربية في التأسيس للوسائل الإيقاعية في النص الأدبي شعره و نثره إضافة إلى الوزن والقافية عولوا على السجع و الازدواج و الموازنة بين الكلمات و الفواصل ، والتوازن بين الجمل 41 ، و اهتمام المدرسة النقدية المغربية بالعملية الإبداعية عموما ، و الإيقاع خصوصا ينبع من نظرتها إلى وسائل الإيقاع كأدوات فعالة في العملية الإبلاغية بما يهيئه الأديب المبدع من إيقاع يطرب بها المتلقي و يحمله على التعايش مع النص الأدبي ، فيزيل بذلك الحواجز التي قد تعترض عملية التواصل بين الملقي و المتلقي، " فإذا كان الكلام قد جمع العذوبة و الجزالة ، و السهولة و الرصانة مع السلاسة والنصاعة، و اشتمل على الرونق و الطلاوة و سلم من حيف التأليف ، و بعد عن سماجة التركيب وورد على الفهم الثاقب ، قبله و لم يرده ، و على السمع المصيب واستوعبه و لم يمجه ، والنفس تقبل اللطيف و تنبو عن الغليظ و تقلق من الجاسي والبشع "42 .

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

خاتمة

لقد كان الحافز أمام النقاد المغاربة الذين اجتهدوا في تحديد معايير العمل الأدبي طرح رؤيا أدبية من شانها أن ترقى بالنص الأدبي إلى مستوى من الأدبية و الجمالية لا يقل عن المستوى الأدبي الذي وصله النص الأدبي مشرقا خاصة في القرنيين الرابع و الخامس الهجريين، بعدما اطلع نقاد المغرب في هذه الفترة على الأفكار و الآراء النقدية المشرقية ، وحاولوا الاستقلال بالشخصية الأدبية المغربية المتميزة ، و أعادوا النظر في الكثير من المفاهيم و القضايا النقدية ، و اتسمت آراءهم بالعمق و الدقة والوضوح ،كما رفضوا فكرة الإقليمية الضيقة في العمل الإبداعي، متمسكين بالنظرة الشمولية للنص الإبداعي، و ما المصطلحات التي وجدناها حاضرة في أعمالها النقدية إلا دليل على تحكم هذه النظرة اللامحدودة للإبداع من قبيل الاتساع، و الاطراد المشترك والمعاني المألوفة، والاجتلاب...

الهوامش:

1 أبو حيان التوحيدي، الإمتاع و المؤانسة، ج 2 ص 134.

2 ينظر إبراهيم عبد الرحمان الغنيم ، الصورة الفنية في الشعر العربي ، (مثال و نقد) ص 19.

3 توفيق الزيدي ، مفهوم الادبية في التراث النقدي إلى نهاية القرن الرابع ، ص 4.

4 ينظر عبد الكريم النهشلي الممتع في اللغة ، ص 21.

5 ابن رشيق القيرواني، العمدة في محاسن الشعر و آدابه و نقده ، ج1 ط 1 ، مكتبة الخانجي القاهرة، 2000 ص 120.

6 ينظر عبد الكريم النهشلي الممتع في اللغة .

7 المصدر السابق .

8 ابن خلدون، المقدمة ، د ط ، دار الكتاب اللبناني، بيروت لبنان 1988 ص 169.

9 ينظر عبد الكريم النهشلي ، الممتع في اللغة .

10 ينظر الجاحظ البيان و التبيين ، تحقيق عبد السلام هارون ، مكتبة الخانجي ط 7 مصر ص 83و مابعدها .

11 ينظر عبد القادر هني ، نظرية الإبداع في النقد الأدبي ص 178.

12 بنظر ابن رشيق القيرواني، العمدة ج1

13 انظر الباقلاني، إعجاز القرآن ، تحقيق السيد احمد صقر ص 220.

14 الجاحظ ، البيان و التبيين ، ج 1 ص 89 90.

15 زكي مبارك ، النثر الفني ص 237.

16 حسين نصار ، المعجم العربي نشاته و تطوره ، دار مصر للنشر 1968 ص 208.

17 ينظر الحصري ، زهر الآداب ، تح محمد بجاوي ، البابي الحلبي و شركاه القاهرة 1953 .

18 عباس احسان ، فن الشعر ط1 دار الشروق للنشرو التوزيع عمان الأردن 1996 ص 156.

19 ينظر ابن رشيق القيرواني ، العمدة في محاسن الشعر و ادبه و نقده .

20 جان كوهين ، بنية اللغة الشعرية ، تر محمد الولي و ومحمد العمري ،ط1 دار توبقة للنشر الدار البيضاء المغرب ، 1986 ، ص 95

21 بشير خلدون ، الحركة النقدية على ايام ابن رشيق القيرواني ، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع الجزائر 1981، ص 172.

22 عبد المالك مرتاض ، في نظرية النقد دار هومة الجزائر ، 2000 ص 51.

23 سهير القلماوي ، النقد الأدبي ط2 ، دار المعرفة مصر ص 68.

24 عبد القادر هني ، نظرية الإبداع ، ص43.

25 محمد مصايف ، جماعة الديوان في النقد ص 267.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

26 محمد زكي العشماوي ، قضايا النقد الأدبي بين القديم و الجديد ، دار الشروق القاهرة مصر 1994. ص9.
27 ماجد ياسين الجعافرة ، التناص و التلقي ، دار الكندي للنشر و التوزيع دار الكندي 2003 ص 58
28 علي ادهم ، على هامش النقد و الأدب ، دار الفكر العربي القاهرة – ص 156.
29 ابن رشيق القيرواني ، العمدة ص 257.
30 سعيد بن كراد ، السيميائيات مقاهمها و تطبيقها ، منشورات الزمن ، دار البيضاء المغرب 2003 ، ص 87.
31 توفيق الزيدي ، مفهوم الادبية في التراث النقدي إلى نهاية القرن الرابع ، ط2 –منشورات عيون الدار البيضاء المغرب 1987 ص4.
32 ميشال عاصي ، الفن و الأدب ، ط 3 مؤسسة نوفل بيروت لبنان – 1980 . ص 71.
33 عبد العزيز الجرجاني ، الوساطة بين المتنبي و خصومه ، تح محمد أبو الفضل إبراهيم و علي محمد البجاوي– دار إحياء الكتب العربية ص 412.
34 ينظر الجاحظ ، رسالة التربيع و التدوير تح فوزي عطوي ، الشركة اللبنانية للكتاب بيروت ص 25.
35 ابن شرف ، اعلام الكلام ، مطبعة النهضة القاهرة 1920 ، ص 37.
36 ينظر ابن شرف– اعلام الكلام ص 38.
37 ابن رشيق – العمدة ج 1 ص 107.
38 ينظر عبد القاهر الجرجاني ، أسرار البلاغة ص 126.
39 ينظر كمال ابو ديب ، في الشعرية ط 1 مؤسسة الابحاث بيروت 1987. ص139.
40 ينظر ابن طباطبة ، عيار الشعر ، تح طه الحاجري القاهرة 1956 . ص 15.
41 ينظر ابن رشيق القيرواني ، العمدة ج1 ص 119 و ما بعدها –و ينظر حازم القرطاجني منهاج البلغاء و سراج الأدباء ص263.
42 ابو هلال العسكري كتاب الصناعتين ، كتاب الصناعتين الكتابة و الشعر– تح مفيد قميحة– ط1 دار الكتب العلمية بيروت –1981–ص71.

قائمة المصادر والمراجع:

1. ابن خلدون، المقدمة ، د ط ، دار الكتاب اللبناني، بيروت لبنان 1988.
2. ابن رشيق القيرواني، العمدة في محاسن الشعر و آدابه و نقده ، ج1 ط 1 ، مكتبة الخانجي القاهرة.
3. ابن شرف ، اعلام الكلام ، مطبعة النهضة القاهرة 1920.
4. ابن طباطبة ، عيار الشعر ، تح طه الحاجري القاهرة 1956.
5. ابو هلال العسكري كتاب الصناعتين ، كتاب الصناعتين الكتابة و الشعر– تح مفيد قميحة– ط1 دار الكتب العلمية بيروت –1981.
6. الجاحظ البيان و التبيين ، تحقيق عبد السلام هارون ، مكتبة الخانجي ط 7 مصر.
7. الحصري ، زهر الآداب ، تح محمد بجاوي ، البابي الحلبي و شركاه القاهرة 1953.
8. بشير خلدون ، الحركة النقدية على ايام ابن رشيق القيرواني ، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع الجزائر 1981.
9. توفيق الزيدي ، مفهوم الادبية في التراث النقدي إلى نهاية القرن الرابع ، ط2 –منشورات عيون الدار البيضاء المغرب 1987.
10. جان كوهين ، بنية اللغة الشعرية ، تر محمد الولي و ومحمد العمري ،ط1 دار توبقة للنشر الدار البيضاء المغرب ، 1986.
11. حسين نصار ، المعجم العربي نشاته و تطوره ، دار مصر للنشر 1968.
12. سعيد بن كراد ، السيميائيات مقاهمها و تطبيقها ، منشورات الزمن ، دار البيضاء المغرب 2003.
13. سهير القلماوي ، النقد الأدبي ط2 ، دار المعرفة مصر.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

14.عباس احسان ، فن الشعر ط1 دار الشروق للنشرو التوزيع عمان الأردن 1996.
15.عبد العزيز الجرجاني ، الوساطة بين المتنبي و خصومه ، تح محمد أبو الفضل إبراهيم و علي محمد البجاوي- دار إحياء الكتب العربية.
16.عبد المالك مرتاض ، في نظرية النقد دار هومة الجزائر ، 2000.
17.علي ادهم ، على هامش النقد و الأدب ، دار الفكر العربي القاهرة.
18.كمال ابو ديب ، في الشعرية ط 1 مؤسسة الابحاث بيروت 1987.
19.ماجد ياسين الجعافرة ، التناص و التلقي ، دار الكندي للنشر و التوزيع دار الكندي 2003.
20.محمد زكي العشماوي ، قضايا النقد الأدبي بين القديم و الجديد ، دار الشروق القاهرة مصر 1994.
21.ميشال عاصي ، الفن و الأدب ، ط 3 مؤسسة نوفل بيروت لبنان – 1980.
22.الجاحظ ، رسالة التربيع و التدوير تح فوزي عطوي ، الشركة اللبنانية للكتاب بيروت.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com